

الاتكال الشرقي

نصيحة غربي

قليل في القارئ من لم يسمعا باسم المستر روزفلت^(١) رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق الذي خدم بلاده أجل خدمة فعد العالم الاجتماعي الاقتصادي والقائد العظيم والسياسي الانساني واعظم ملوك عصره ورؤساء الجمهوريات بلا نزاع

اصل هذا الرجل هولاندي نزل اجداده الولايات المتحدة منذ مائتي سنة وتخرج هو في كلية هارفرد الجامعة وكان قبيل الحرب الاميركية الاسبانية مساعد امين سر وزارة البحرية فلما نشبت الحرب استقال وتطوع في الجيش حتى اذا عاد ظافراً عينه الحكومة والياً على نيو يورك ثم معاوناً للرئيس ماكلي فلما قتل هذا القبحه الامة رئيساً عليها على الرغم مما كان يكيد له بعض منافسيه في السياسة ثم اعيد انتخابه بعد اربع سنين وهي المدة الثغابية اكل رئيس جمهورية • ضرب روزفلت على ايدي رجال الاحتكار في الغرب وطامات لافواله رؤوس ملوك الفولاذ والبرول وغيرهم من الاميركان ونصر المستضعفين والفقراء وهاله اجتماع الثروة في ايدي افراد وحرمان سائر الامة منها فقام يضرب على المحتكرين الرسوم الفاحشة ويداوي الاجسام والجيوب بانعاله كما يداوي الارواح والعقول باقواله وله عدة تأليف اجتماعية سياسية ومقالات كثيرة في المجالات والجرائد وهو الذي الف بين جمهوريات الجنوب وجمهوريات الشمال وجعل لبلاده مقاماً سامياً في السياسة الخارجية وحل المعضلة التي كانت استحكمت بين روسيا واليابان فاستحق على عمله جائزة السلام انوبل وعينه مجمع العلوم السياسية والاخلاقية في باريز عضواً مراسلاً له دلالة على اعتبار اوربا لاعماله

ولما لم يرض المستر روزفلت ان يعاد انتخابه لرئاسة الجمهورية للمرة الثالثة عملاً بالتقليد المأثور عن الرئيس واشنطن وجفرسون رأى ان يهجر البلاد مدة ليخلو الجو للرئيس نافث الجديد فرحل الى افريقية الشرقية ليكمل نفسه في العلم والتجارب ويفيد امته من رحلته حتى اذا عاد الى نيو يورك بوسد اليه تحرير مجلة الاونلوك الاسبوعية

وهكذا يرجع الرئيس من زعامة خمسة وثلاثين مليوناً من البشر الراقي الى رئاسة تحرير مجلة . وناهيك بمنصب العلم من منصب

خطب المستر روزفلت في الخرطوم قاعدة الودان جماعة من طلبة المصريين والسوريين في دار احد مرسلي الاميركاث في شهر ربيع الاول ١٣٢٨ - آذار ١٩١٠ وانتقد مايرمي اليه كثير من الشبان في اوربا واميركا وافريقية من الرغبة في التوظيف وخدمة الحكومة فارادهم على ترك الانكال والعمل في اعمال المعاش على طريق الاستقلال قال : « فني قلت لكم انه يجب عليكم ان تؤيدوا الحكومة لاريد ان يخطر لكم انني اريد من قولي هذا انكم مضطرون الى السعي وراء احراز الوظائف فيها (ضحك) بل ان الامر على عكس ذلك . وارجو باحضره الدكتور جفن (رئيس الارسالية الاميركية في السودان) ان الاعمال التي قمت بها هنا والتي تقوم بها سائر المعاهد العلمية التي لكم صلة بها سترمي الى تلك الغاية . فمذكرون دائماً ان اعظم الناس خدمة وتفعلاً للحكومة هو الرجل الذي يأتي في كل حال ان يشغل وظائفها

أما أنا فلا أريد أن أرى كلية من كليات الارسالية موجهة سعيها الاول وجاعلة غايتها الرئيسة من التعليم مجرد تخرج طلبة لاحراز الوظائف في مناصب الحكومة . بل أريد أن أرى المتخرج مستعداً للعمل باستقلال وبدون اقل اهتمام بأية مساعدة يتناولها من راتب يتقاضاه من الحكومة . فان افضل المواطنين شأناً هو من برع في الهندسة والصناعة والزراعة ومن سوء الحظ ان يقع في الازهان سواء في اميركا واوربا وافريقية ان الرجل المتعلم يجب ان يجعل غايته الوحيدة اتخاذ وظيفة في خدمة الحكومة . انني ارجو ان يتخرج من هذا المعهد العلمي وامثاله عدد من افضل الموظفين لخدمة الحكومة في اعمالها العسكرية والمالية ولكن اذا وافقت الاحوال فان موظفي الحكومة بين ملكيين وعسكريين يكونون دائماً العدد الاقل من المتخرجين . لان الغاية العظمى التي يجب ان ترمي اليها المعاهد العلمية هي تخرج رجال يستطيعون العمل بدون مساعدة ويستطيعون ايضا مساعدة انفسهم وغيرهم على استقلال تام بدون ان تكون لهم اقل علاقة بالحكومة . وهذه مسألة اهتم بها كثيراً هنا اهتمي بها في اميركا بالذات

وفي الختام اقول لانتفعوا في الخطأ الذي يقع فيه الشبان . منكم فنظنوا ان ثلكم قد انتهى بخروجكم من المدرسة او الكلية . بل اعلوا انكم انما انجزتم نصف العلم فانا الآن

في الخمسين من عمري ولو افي توقفت عن تحسين حالتي وزيادة معارفي لشعرت ان قد اوشك ان ينتهي نقبي للجمهور

فعلى كل واحد منكم متى خرج من مدرسته ان لا يقول «الآن قد انتهى تعلمي في وسعي ان اكمل» بل اريد ان تقولوا «قد سهلوا لي وضع اساس قوي للتعليم الناضج وفيما انا اقوم باعمالتي ساء واصل تمرين نفسي وتعليمها فبدلاً من ان تمر في الايام وانا واقف في مكاني ارا في التقدم واصير اكثر كفاءة للعمل واوفر مقدرة على انجاز الاعمال الحسنة»

هذا ما قاله في هذه الخطبة وهو كما نراه يدعو الى الاستقلال في التربية وقال في خطبة له في القاهرة القاها في الجامعة المصرية ابتدأها بالاسف لانه ليس من اهل العلم ليتكلم بالعربية ولو كان منهم لما تكلم الا بها :

«اجتنبوا الباطل والادعاء الفارغ كما تجتنبون التعصب الديني والجنسي والسياسي . ان في كليات اوربا وكليات بلادنا اموراً كثيرة نستفيدون منها ولكن فيها ايضاً اموراً كثيرة يجب اجتنابها . فاقبضوا عنها ما كان حسناً ولكن انتقدوه قبل اقتباسه حتى تثقوا بأنكم انما تكتبسون ما هو الافضل والاصح لكم»

واهم من اجتناب التقصيرات التعليمية اجتناب التقصيرات الادبية . فانكم ترسلون الطلبة الى اوربا لكي يدرسوا فيها ويستعدوا لان يصيروا اساتذة . وهذا الاستعداد لازم اذ من الامور الجوهرية ان تكون الجامعة مطلعة على احسن ما يجري في معاهد اوربا واميركا العلمية ولكن ليعتني الشبان الذين يرسلون باقتباس كل ما هو حسن وحميد وواجب لارقي انواع التقدم الحديث وليجتنبوا كل ما كان غير ضروري في تمدن هذا العصر ولا سيما رذائل الامم المتعدنة الحديثة ولكن اذهنانهم مفتوحة اذ من الخطأ العظيم ان تأبوا اقتباس ما رقي به الغرب في مرفاة التوبة والعدل والعبادة الطاهرة وان تفضوا به حاجاتكم ولكن من الخطأ العظيم ايضاً ان تقتبسوا ما كان رخيصاً او مبتذلاً او ردياً . ليعلم الذين يرسلون الى اوربا ان فيها اشياء كثيرة يجب ان يتعلموها واخرى يجب ان يجتنبوها ويرفضوها فليأخذوا الحسن وليبتذوا التبيح .

واعلموا ايها الاخلاق انه ان كان عندي شيء اقول لكم فذلك الشيء هو ان الاخلاق اهم من العقول بكثير وانه يجب على كل جامعة عظيمة بالفعل ان تسعى في تربية الصفات التي تكون منها الاخلاق اكثر من تربية الصفات التي تقوم بها العقول المثقفة . نعم انه

ما من رجل يبلغ الطبقة العليا بين الرجال اذا لم يكن عاقلاً ذكياً بنفسه ولم يكن مثقفاً بعقل وذكاه اذ التشقيف لازم كالذكا. ولكن الذكا وحده لا يجدي مالم يستوشد بقلب مستقيم ومالم تكن وراة قوة وشجاعة . فالآداب والحشمة والعيشة الطاهرة والشجاعة والوراة واحترام الانسان لنفسه كلها صفات اعم في تربية الامم من ذكا العقول فاجعلوا هذه الجامعة بحيث تساعد ايتكم على ارتقاء دواكم .

واحدروا خصوصاً من نقص واحد في التربية الغربية فقد كثر الميل في مدارس الغرب العالية الى تعليم الشبان حتى يكونوا رجال علم وادب ورجال صناعات وموظفين في وظائف رسمية كأن لا تربية حقيقية غير التربية العلمية ولذلك سررت غاية السرور بانكم شرعتم في انشاء المدارس الصناعية والزراعية في مصر اذ التربية العلمية نوع واحد من انواع التربية المختلفة وليس من الحكمة ان يقتصر عليها وحدها سوى جزء قليل من اهل كل البلاد . اما بنية الامة فيجب ان تسبدا ما ينيرها وتقرن على اعمال أخرى . ان سمو الخديوي في اعماله الكثيرة التي تتناول جميع وجوه العيشة المصرية اظهر حكمة عالية وبعد نظر وادراك حاجات بلاده بما يظفهره من الاهتمام بتربية زراعتها وتحسين الزرع والضرع .

فهذه البلاد كسائر البلدان تحتاج الى عدد معين من الرجال تؤهلهم تربيتهم الانقطاع الى العلم او التعليم في المدارس او تقلد مناصب الحكومة . ولكن ليس من مصلحة بلاد ما ان ينصرف الى هذه الامور سوى جزء صغير من ذوي العقول الكبيرة فيها .

ويجب ايضاً تربية الميل الى الصنائع وقرين الاهالي حتى يحسنوا الزراعة وينفخوا فيها كما ينبغي امر المحامين والموظفين وحتى يخرج منهم المهندسون والتجار واصحاب الاعمال الاخرى التي لا غنى عنها في بلاد عظيمة ممتدة .

ان وجود سياسي شجاع مستقيم بعيد النظر مفيد في كل بلاد ولكن فائدة تزوف خصوصاً على استطاعته التعبير عن مشيئة امة والسياسي النصيب الاصغر في قيامها وللتاجر والزارع والمهندس واهل الفنون الاخرى النصيب الاوفر . كل امة لا يكون لها من القادة الا الكتبة والساسة والمحامون لم تدرك شأواً يستحق الذكر . فأساس الحياة الصحيحة في كل بلاد واجتماع انما هو الرجال الذين يعملون الاعمال المختلفة من حراثة وصناعة وتجارة ولا فرق بين ان يشتغلوا بايديهم او بعقولهم . وخير للانسان

ان لا تغل برأسه ويديه معاً فهو لاهم الذين يعملون الاعمال الكبرى في حياة المجموع
وما المشتغلون بالعلوم والمعارف والسياسة والقانون وموظفو الحكومة سوى مكملين لهم .
على ان الامر المهم ان يقوم العمل على الامانة والكفاءة مهما يكن مركز العامل
من اكبر كبير الى احقر حقير . وما اقول هذا على ضفاف النيل هو نفس ماقلته على ضفاف
انهر الهندسون والمسيحي والكولمبيا .

واذكروا دائماً انه لا الفرد ولا الشعب يترى ان التربية الجهورية بمجرد فعل يعلنانه
وانما يترى ان بطريقة تتعاقب فيها الافعال كطريقة النمو فانك لا تجعل الانسان تربية
ومتعلماً تعليماً حقيقياً بمجرد اعطائه دروساً معينة وكذلك لا تجعل امة صالحة لان تحكم
نفسها بنفسها بمجرد اعطائها دستوراً على الورق . بل تربية الفرد وتعليمه حتى يصير صالحاً
للعمل في العالم تستغرقان اعواماً طويلة وهكذا تربية الامة واعادتها حتى تنجح في قضاء
واجبات الحكومة الدائمة لا يتان في عشر سنوات او عشرين بل يلزمها اجيال متعاقبة »
وخطب ايضاً تليذات كليات البنات الاميركية في القاهرة فقال :

« لائق امة في العالم ابداً اذا لم تكن فيها المرأة قادرة على القيام بعملها بمجداة واهلية
مثل الرجل وانه من العدل ان تفهم وهي في حداثة السن في مدرستها وتعلم كيف يجب
ان تنشأ وترتقي كما يرتقي الرجل ومن الواجب ان لا تتعلم العلوم فقط بل ان تعرف كل ابنة
كيف تؤدى اعمالها واشغالها

اني افتخر بكل مدرسة لاني انتصر على تلقين العلوم بل تعلم العمل ولا أشك في ان
تليذات هذه المدرسة متى صرن صاحبات بيوت يبرهن على اقتدارهن على ان ينعمن في
بيوتهن كما تقوم نساء الارسالية في بيوت رجالهن

يسرن جداً في هذه المدرسة انها تعمل على قاعدة التسامح الديني . يسرن جداً
ماثلته من ان ثلث تليذات هذه المدرسة مسلمات والثلثين مسيحيات واسرائيليات ومن
طوائف اخرى

اود الان ان اتكلم عن المدارس عامة لما جئت الى مصر من زمن بعيد لم تكن الحالة
كما هي الان انني لا افدر ان اصفها تماماً ولكن اذكرك منها مايجعلني مع المناظرة ارى الان
النجاح والتقدم العظيم . انني شاهدت الان بيوتاً وترتيباً ومعيشة لم اشاهدها حينئذ .
رايت في بيوت عديدة مادني على ان الزوجات والامهات اللواتي فيها قد كن تليذات
في مثل هذه المدرسة او انهن عاشرن معلماتها والمتعاملات فيها

انني في كلامي عن المدارس لا أخصص جنساً منها بل امدح كل المدارس على اختلاف نزعاتها وصفاتها والقائمين بالعمل فيها ولا اقول انه توجد مناظرة بين هذه المدارس او انني اكره المناظرة في هذا السبيل بل اقول انني ارجو الخير لجميعها اذا كانت تعمل وهي ولا شك تعمل لخير المصريين »

هذا ما قاله العلامة المشار اليه وهو كما تراه يرمي الى الاستقلال وبغير الناس عن الانكال اذ قد عثر عليه ان يرى شبان الشرق يقلدون بعض شبان الغرب في مكاسيهم ومعايشهم فيصبحون عائلة على الحكومات يرزقون من خزائنها مختارين في علمهم الراحة على الهي والكسل على القضاء والتضييق على الانطلاق والانتكال على الاستقلال فتغرب البلاد باممال ابناءها لها ويقفحون بايديهم ابواب بيوتهم للدخلاء والغرباء وتترك خيرات الارض لمن يقوم على تعهدها واستثمارها واستنباتها

من طبيعة المرء ان يحب العيش المضمون المريح وليس احسن من الوظائف في هذا الباب تضمن هاش الانسان في حياته وبعد مماته فيمترج في سلسلة المراتب ولا سيما اذا كان على شيء من المعرفة المكتسبة والخبرة والدعاء ومعرفة المدخل والمخرج في سيرها فان نطقته هي وسألت عن السبب كان للموظف ولا سيما اذا كان صغيراً ان يسأل عنه . يكتفي في مضار التوظيف في الحكومات انها تسبب الارادة ومن سببت ارادته فثبت نفسه ومن ثبتت نفسه كان كالميت لا يتحرك الا اذا حركه . وان امة يرضى نوابغ ارباب الذكاء فيها لانفسهم ان يكونوا بلا ارادة ولا شخصية ولا استقلال جديرة بالضعة والمقت والفقر والخلو واذا حاز النباه هذه الصفات السيئة فاولى ان يكون حظ الخاملين اتعس . ولا رجاء لعامة ضعف خاصتها عن تعهد امرها .

من اكبر الدواعي في تراجع عمران البلاد العثمانية والمصرية انه وفر في النفوس مع الزمن ان من لم يخدم الحكومة لا يمد من الاشراف ولا من ارباب المكانة والرأي والوجاهة . وان كل سرورة وحكمة وعقل وعلم ورفعة وقف على الموظفين ومن لم يحثك بالحكومة كان وضعاً مهما رفعه مقامه وشرف آباءه وجدوده وجدده ومضاهه وحكته ودرسته ومعرفته وثروته .

هذا الخلق من طبيعة الحكم الاستبدادي وكما رأينا بيوتاً خربت لان اربابها عن عليهم الا ان يحاروا بيوتاً اخرى كانت منافسة لهم سيفت التسابق الى دواوين الحكومة

فغفلوا عن تجارتهم وزراعتهم المشروعة المعتولة وتعلقوا بالثافات من خدمة ارباب الحكم فما استفادوا بقديمهم ولا احسنوا نلتف حديثهم . واكثر ما يكون هذا الخلق ظهوراً الآن في سكان العواصم مثل الاسكندرية والقاهرة ودمشق وحلب فترى كثيرين من اهلها كالحلقة الطفيلية ينتظرون نقل احدهم او استقالته او موته حتى يخلفوه في مكانه ان اقول المستر روزفلت حرية بان يجعلها اهل هذه البلاد رائداً بين ايدي اعمالهم ومهمازاً لهم في اقوالهم وافعالهم . ان انصراف وجوه الناس كلهم نحو التوظيف قد عطل في بلادنا القوى المعنوية والمادية وتغادر القوم كالعجائز نخل خاوية تركوا موارد الثروة الحقيقية وراحوا زرافات يطرقون ابواب الحكومة وما هي بمغنية رعاياها كلهم وهم هم مادة حياتها وبنفاهم تغنى وبشقايتهم تشقى .

لا يتعلم المتعلم منا من اهل الطبقة العالية والوسطى والدنيا الا ليكون ضابطاً او قائماً مقاماً او موظفاً في الافلام او من رجال القضاء وقليل جداً من يريدون ان يتعلموا ليستعدوا لانجاح تجارتهم وزراعتهم وصناعتهم ولا سيما من اهل الاسلام الذين حصروا آمالهم في الحكومة في كل دور من ادوارهم ولذا قلنا رأينا ابن تاجر منا علمه ابوه على الاسلوب الجديد حتى يكون كشجار الافرنج بتعليمه وتجاريه ويعود عليه القرش قرشين بدل ان يعود قرشه بيارة .

طف مخازن القاهرة والاسكندرية وازمير وسلاطيك والاسكندرية وبيروت واسأل عن تراجم اربابها واجناسهم فهل ترى فيهم الا افرنجاً او غير مسلمين من اهل البلاد . واذا وقع لك ان صادفت تاجراً مسلماً فيكون في الاكثر غريباً عن تلك المدينة او انه احوج الى التعلم في عمله من اصغر تاجر من اولئك التجار ارباب الاموال الطائلة والمعرفة الواسعة .

تجول في القرى والخص المزارع هل تجد لمسلم وطني مزرعة نجحت بسعيه كما نجحت مستعمرات الالمان في فلسطين والفرنسيون في البقاع ومستعمرات الطليان والرو والارمن في مصر واذا رأيت مسلماً اخضعت تربة على سبيل الاتفاق فابحث عن السبب تراه اهتدى الى استخدام اناس ممن تربوا على غير طريقته وعرفوا في الامور الدنيوية من اين تؤكل الكتف .

وابحث عن صناعات البلاد هل تراها كل يوم الا ترجع القهترى لان اربابها حمدوا على ما تعلموه من آباءهم ولم تجدتهم انفسهم في تقليد الراقيين من صناع الابدى ولانك

لا تجد في الاف منبه واحداً يعرف ما يقتضي لتجاحه من الاسباب واي الطرق سلكها الغربيون حتى يزوا بمصنوعاتهم مصنوعاتنا ويوشكون ان يقضوا عليها قضاءً ابدياً .

كل هذا نتيجة الكسل والاعتداد على الحكومة في الرزق والبلاد لا ترتقي الا بالمسلمين في المملكة العثمانية لانهم الجمهور الاعظم من السكان ومنهم جل رجال القضاء والادارة وارباب الاملاك والاراضي ولا سبيل الى ارتقائها الا اذا ارتقوا هم انفسهم ان لم يكن اكثر من مواطنيهم فلا اقل من ان يكونوا على مستواهم . ونظن هذا التصريح جارحاً ولكنها هي الحقيقة لا تدليس فيها ولا دهان .

ان كل ما كان الموظفون يجمعونه من دماء الامة لم يثمر لهم الثمرة الجنية لانه مال حرام اتاهم من غير طريقه المشروعة من كد واقتصاد فلم تزدهم ثلثت في اعقاب الموظفين الى جبلين الا نادراً وكثيراً ما كان يفتقر الموظفون في حياتهم ولولا رواتب التقاعد لرايت اعظم الموظفين في السنة التي يضطرون فيها الى ترك وظائفهم فارغة ايديهم من مال يعتاشون به ولو كانت مشاهرتهم تعد بعشرات الليرات .

هذا من حيث المال اما عن سلب حرية الموظفين فحدث ما شئت ان تحدث ولولا ان العادة تسهل الاشياء لغضبي على اكثر الموظفين في سن الكهولة لكثرة ما يلقون من عنت رؤسائهم وتضييق وجداناتهم وكم من ذكاء ذهب سدى لان صاحبه لم يستعمله بل حصره في دائرة ضيقة من عمل اصبح له شيئاً معروفاً في بضعة اشهر وقضى عمره وهو يبيض ويسود ويوحاسب في موضوع لا يكاد يتعداه .

ان التوظيف عمل من اعمال الناس لا يصح ان يتوك والا فمن يدبر شؤون البلاد ولكن لا يجب التهاك فيه كما نراه يتزايد اليوم بعد اليوم فالام التي كانت تفرح ابنها فيما غير وتقول له ان شاء الله اراك باشا ينبغي لها ان تربيه مع ابيه على ان يكون بعد اليوم ممتازاً في حرفة من الحرف او صناعة من الصناعات فقد جرت الامة ورأت من افلاسها مالا يتكره غافل لانه لم يتعلم منها احد الا ليكون من المستخدمين . كأن غيرات الارض والسماء لا تفقد الاتي من ينصب نفسه وجسمه للجري على ارادة غيره لينال برعمه وزقه هيناً ايها .

انا والله مع احترامنا لكل موظف امين يخدم الامة بسدق وبقبض راتبه بعرق جبينه لتفضل عليه من يجرب بالسادات لعمري الارض ومن يخرج الحجارة من المقالع ويعتمد على خالفه وعمله في معاشه على فرد ينسى كل شيء ويتجرد عن كل شيء ليقال عنه انه موظف .

نزل مصر بعض المتعلمين من السوريين منذ عهد الخديوي اسمعيل وقبله واخذوا بما فيهم من النشاط والقوة والمعرفة يتولون الوظائف وينافسون فيها المصريين في بلدهم فبقيت ارزاقهم محدودة ولم يخرجوا عن كوتهم مستخدمين يصرفون في آخر شهرهم كل ماقبضوه في اولة . ولما صعبت الحكومة المصرية وصول غير المصري الى تولي الوظائف بالقانون الذي سنته على عهد الوزارة الرياضية حول السوريين وجلهم مسيحيون وجهتهم الى التجارة والزراعة فماذا كان من اثر ذلك عليهم ؟

كان منه ان اصبحوا يشكلون على عملهم وكدم وابتاعوا الاطيان البائرة في القطر المصري فعمرونها بنشاط ومعرفه ويتجرون بمصنوعات البلاد ومصنوعات اوربا ويتوفرون على تلبية اموالهم بطرق اقتصادية حتى لم يمض عقد او عقدان من السنين الا وقد اصبح ابناؤهم سوريه النازلون في مصر اغنيا بعد الحاجة موسعا عليهم غب الضيق يملكون التصور الباذخة ويمتعون بالعيش الخفضال حتى قدر احد العارفين ثروة السوريين في مصر بخمسين مليون جنيه اي بمشروع ثروة مصر . ولو ظلوا راضين كلهم بالدون من المعاش لما جمعوا واحداً من مئة من هذه الثروة الطائلة ولا يكون مايجمعونه الا من التقدير والشح وكذلك فعل المسيحيون في البلاد العثمانية لما قطعوا آمالهم من الحكومة فبانت اعمال المعاش الملهمة كما تقدم بايديهم ودرت عليهم اخلاف السعادة ولو قلدهم سائر العثمانيين في هذه الخطة الشريفة خلصنا من الاشكال الذي لم نبلة امة من الامم في سالف القرون والاحبال

قال الجاحظ في رسالته مدح التجار وذم عمل السلطان : وهذا الكلام لا ينجم من حسنة اتباع السلطان فاما عليتهم ومصاصهم وذو البصائر والتمييز منهم ومن فيقته الفطنة وارهقه التأديب وارهقه طول التفكير وجرى فيه الحياء واحكته التجارب فعرف العواقب واحكم التفصيل وينطق (?) غوامض التحصيل فانهم يعترفون بفضيلة التجار ويثنون عليهم ويحكون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة ويعلمون انهم اورع الناس ابداً واهناهم عيشاً وامنهم سرباً لانهم في افئدتهم كالمالوك الى اسرتهم يرغب اليهم اهل الحاجات وينزع اليهم متمسوا البياعات لا تلحقهم الدلة في مكاسبهم ولا تستبد بهم القصر لمعاملاتهم وليس هكذا من لايس السلطان بنفسه وقاربه بخدمة فان اولئك الياسهم الدلة وشعارهم الملقا ولعولهم من هم لم خول مملوءة قد لبسها الرعب والفها الدل وصحبها ترقب الاحتياج فعم مع هذا في تكدير وتغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتكيل الصاحب وتغيير الدول

واعترض حلول المحن فإن هي حلت بهم وكثيراً ما نحل فتأهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلاً عن الاولياء فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير مئة لاحد ولا مئة يمتد بها وكم بين من هو من نعم المفضلين خلي وبين من قد استغرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنعة وطوق عنقه الامتتان واسترهن بجمل الشكر الخ

ملك الانكليز وامبراطور الهند^(١)

إذا كان فراق هذه الدنيا تزود صعوبة بزيادة اقبال الحظ وسعادة الطالع على المرء فللك ادوارد السابع اولي الخلق بكرامة الموت وحب البقاء . وان كانت بلوغ الاماني وحصول الرغائب وزاعاً للمرء عن التثبت بجبال الحياة ومقضيها به الى التناعة من الدنيا والاكتفاء من لذائذها وحب الرحيل عنها فهذا العامل الكبير اجدر الناس على الاطلاق بالملل من العمر والازدراء باطياب الحياة .

وذلك لانه عاش عمراً مفعماً بالحوادث العظيمة ومملوئاً بكل ما اشتهته نفسه وطاب به قلبه وتمتع بجميع ما تتطلبه الاميال البشرية وتنهأ به النفوس . فقد كان قبل ان ارتقى الى الرش البريطاني في ٢٢ كانون الثاني ١٩٠١ منصرفاً الى ما يلهو من السياحات والمذاكرات والمشاغل الخاصة غير متحمل عناء السياسة ولا متعرض الى ما لا يعني من شؤنها فكان بكثير من مخالطة العلماء وتفاوضهم في الفنون التي اوع بها ويحضر الحفلات العملية ويسمع الخطب ويقرأ المقالات في العلوم الطبيعية ويطالع الجرائد السياسية ويقف على آراء الزعماء ومطالب الاحزاب واغراضهم ويعي ذلك في صدره لينتفع به عند الحاجة وينتهي بالخروج الى الصيد في اوقات الفراغ والسياحة في اوربا وقد كان مولعاً بمدينة باريس جعلها موضع دار به ومقر صفائه واكثر من اتيانها والابو فيها حتى اشتهر الناس بالجنون والطيش وحسبوا انبعاثاً في الملهيات وقيلامه على صفاء العيش وخلو الدمن من المشاكل يجعله ضعيفاً في ادارة الشؤون السياسية قاصراً عن النهوض باعباء الملك عند انتدائه اليه .

درس العلوم العالية في جامعة كمبريدج وجامعة اكسفورد ونال منهما رتبة دكتور في